إلّا ان قرارات المؤتمر، ونشاطاته، ظلت عاجزة تجاه ما أحدثه تفجّر الثورة المسلّحة سنة ١٩٣٦، فكان لهيب الثورة هو الاقوى، وكان هو الحاضنة الحقيقية لكافة النشاطات الشعبية الوطنية. ومن خلالها، شاركت حركة الشباب في الكفاح المسلح، ولم يظهر للهيآت الكشفية والشبابية صوت مستقل فيها، كهيئة شعبية نقابية، حتى العام ١٩٤٦.

الحركة الشعبية وعلاقاتها بالقيادة السياسية

ان إستقراء سريعاً لاحداث وتطورات الحركة الشعبية في فلسطين من شأنه ان يدلل، بوضوح، على انه لا يمكن الفصل ما بين الحركة الشعبية والنضال السياسي، ذلك ان الحركة الشعبية كانت تتأثر، سلباً وايجاباً، ضعفاً وقوة، بالمد الوطني والقومي.

غير ان ذلك لم يمنع الحركة الشعبية من ان تنتهج نهجاً مستقلاً عن القيادة السياسية وصراعاتها. وكانت جمعية العمال العربية في مقدم تلك الحركات، «فلم تكن تنتمي الى أي حزب؛ ولم تكن تأخذ رأي أي حزب»[٣٣]. ونظراً الى ارتباط الحركة الشعبية، مصيرياً، بسياسة البلد الذي هي فيه، «فقد كان العمل السياسي أمراً لا مفرّ منه»[٣٤]. وبالمقابل، حاولت القيادة السياسية، منذ فترة تأسيس الاحزاب في الثلاثينات، توظيف النقابات، وخاصة العمالية منها، في خدمة مصالحها السياسية، وتعزيز نفوذها التنظيمي. وفي هذا السياق، شكّل فخري النشاشيبي نقابة سائقي السيارات، وعيّن نفسه رئيساً لها. فقد كان النشاشيبي يرى في التنظيم العمالي رصيداً يمكن استغلاله في صراعه ضد المفتي، وشكل قاعدة سياسية للمعارضة من شأنها منافسة المجلس الاسلامي الاعلى، بل واقوى منه، بسبب أعدادها المتنامية وامتلاكها لسلاح الاضراب[٣٥]. ويذكر في هذا المجال ما قام به النشاشيبي من جهد في أوساط العمال العرب، في مدينتي القدس ويافا، لاقامة «جمعية العمال العرب» فيهما، استناداً الى مكانة آل النشاشيبي التقليدية في القدس خاصة، وبسبب غياب أي تنظيم نقابي منافس، وسعياً وراء إقامة تكتل شعبي لمواجهة آل الحسيني ومؤيديهم[٣٦].

جمع النشاشيبي حوله بعض انصاره الشخصيين، وأسس، في تموز (يوليو) ١٩٣٤، «جمعية العمال العرب، في القدس». وفي أيلول (سبتمبر) ١٩٣٤، أسس جمعية عمّال في يافا[٣٧]. كما حاول ميشيل متري، وهو شاب ترعرع في الارجنتين، وتعلّم فيها، وتأثر بالروح الاشتراكية الغربية، وكان معروفاً بميوله اليسارية، من تأسيس جمعية عمّالية هي «جمعية العمال العرب» في سنة ١٩٣٥، تكوّن قاعدة لافكاره السياسية، والاجتماعية. وحدّد متري أهداف الجمعية بالتصدي لفرق العمل اليهودية، ومنع اية شركة يهودية من اخذ تعهدات إنشائية حكومية في المناطق العربية. ولم تعمّر هذه الجمعية طويلاً، بسبب مقتل رئيسها غدراً، فأُغلقت ابوابها في أواخر سنة ١٩٣٨[٣٨].

ان نجاح النشاشيبي ومتري، وكلاهما من خارج صفوف الطبقة العاملة، في إقامة تنظيمات نقابية، إنما يشير الى درجة تقبّل الجماهير العاملة العربية لفكرة التنظيم والوحدة، من جهة، وأهمية دور الحركات الشعبية كافة في دعم وتقوية التيارات السياسية، من جهة أخرى. وفي هذا السياق، يبرز السؤال لماذا لم تحاول الكتلة الحسينية من تأسيس نقابات على هامش عملها السياسي؟ ولماذا لم تحاول السيطرة على الحركات الشعبية خلال تلك الفترة؟

من الواضح ان الحاج أمين الحسيني كان يدرك مدى أهمية الحركات الشعبية، خاصة العمالية والشبابية منها؛ الّا انه، في المقابل، واستناداً الى قوة زعامته الدينية والسياسية كمفتي